

رؤية ناصيف نصّار لعلاقة الفلسفة بالإيديولوجيا في الفكر العربي المعاصر
Nassif Nassar's View of the Relationship of Philosophy with
Ideology in Contemporary Arab Thought

بن عروس عبد النور¹، المشرف: د. بوترعة سعد²

¹ مخبر الفلسفة والدراسات الانسانية والاجتماعية ومشكلات الإعلام

والاتصال، جامعة 08 ماي 1945 قالمة (الجزائر)،

benarous.abdelnour@univ-guelma.dz

² جامعة يحي فارس المدية (الجزائر)، sadboutara76@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/05/30 تاريخ القبول: 2023/07/19 تاريخ النشر: 2023/10/06

ملخص: يهدف هذا البحث للكشف عن العلاقة التي تربط الفلسفة بالإيديولوجيا من منظور نصّاري خاصة أن هذا الأخير عدّها من أهم المحاور الأساسية في التفكير الإنساني عبر العصور، وقد أفرد أعمالا خاصة بهذا الموضوع منها "الايديولوجية على المحك" و"الفلسفة في معركة الإيديولوجية" في هذه الأعمال وغيرها يرى أن هناك حاجة ماسّة لاستيعاب العلاقة بينهما، فالفلسفة لا يمكن أن تؤدي الدور المنوط بها إلّا إذا استطعنا أن نميز بين مجالاتها ومجالات الإيديولوجيا .

وقد توصلنا من خلال بحثنا هذا الى وجود نقاط تباعد واختلاف بينهما ونقاط تقاطع وتواصل لا يمكن تغييبهما. كما أن كسر حاجز الإيديولوجيا يكون بطريق الاستقلال الفلسفي المحض.

الكلمات المفتاحية: الإيديولوجيا، الفكر العربي المعاصر، الفلسفة، التاريخية، السياسة.

Abstract: This research aims to reveal the relationship between philosophy and ideology from a Christian perspective, especially since the latter considered it one of the most important basic axes

in human thinking throughout the ages. And others believe that there is an urgent need to understand the relationship between them, as philosophy cannot play the role assigned to it unless we can distinguish between its fields and those of ideology.

Through our research, we have concluded that there are points of divergence and difference between them, and points of intersection and communication that cannot be absent. Breaking the barrier of ideology is through pure philosophical independence.

Keywords: ideology, contemporary Arab thought, philosophy, history, politics.

*المؤلف المرسل: عبد النور بن عروس

1. مقدمة

إن الاهتمام العربي الإسلامي المعاصر بموضوع الإيديولوجيا، إنما برز بشكل لافت في أزمنة التمزق العربي والإسلامي وفي فترة كانت محكومة بمناخ الاخفاقات والانكسارات والانحدارات الكبرى. ومن المؤكد أن الإيديولوجيا لا تثير إشكاليه المعرفة أو علاقة الفكر بالواقع، إثارة علمية، بل تقدم نفسها كضرورة وظيفية انقلابية في المجتمع. إذ لا يتسنى لأي مجتمع أن ينهض ألا بناء على إيديولوجيا محرّكة. إن الاهتمام بالإيديولوجيا في هذه المرحلة ظل يطرح همأ مزدوجاً أو لنقل استراتيجية للاحتواء المزدوج خاصة إذا ربطنا بينها وبين الفلسفة. لقد وجد العالم العربي نفسه في تلك المرحلة، داخل عالم مشحون بالثورات الاجتماعية المتعاقبة ما جعل الاهتمام بالإيديولوجيا وعلاقتها بالفلسفة أمراً طبيعياً، كما جعل الشعور بأهميتها له ما يبرره وينهض بضرورتهما. وقد برز ناصيف نصّار -وهو من أوائل المشتغلين على المشكل الإيديولوجي والفلسفي- اشتغاله هذا برغبته في تجاوز الفوضى التي وقع فيها العرب في استعمالهم للإيديولوجيا وعلاقتها بالفلسفة. إن

رؤية ناصيف نصّار لعلاقة الفلسفة بالإيديولوجيا في الفكر العربي المعاصر

سوء الاستعمال للإيديولوجيا وعلاقتها بالفلسفة في الفكر العربي المعاصر ووقوع المثقفين العرب في مأزق تداخل المدارس والتحليلات، من شأنه أن يهدد الفكر ويعكّر النظر. من هنا جاءت دعوة ناصيف نصّار الى إعادة الوضوح الى المفاهيم لأن عدم وضوح المفاهيم خطر كبير على استقامة الفكر .

إن المطلوب في نظر نصّار هو تكوين اتجاه نظري جديد قادر على استيعاب العلاقات بين الفلسفة والإيديولوجيا وفق منهج جديد وهو ما يعرف عنده بـ "الواقعية الجدلية" منهج يقوم على الشك المنهجي والتحليل والنقد والانفتاح يحرص على الفعل الفلسفي والممارسة لكشف البعد الإيديولوجي في الفعل الفلسفي، وإحداث التحول الممكن من الإيديولوجيا الى الفلسفة، ويتمثل السؤال الرئيسي لبحثنا في: كيف كانت رؤية نصّار لعلاقة الفلسفة بالإيديولوجيا في الفكر العربي المعاصر؟ وتنضوي تحته تساؤلات جزئية وهي على التوالي :

1- ما المقصود بالإيديولوجيا او ما هي الإيديولوجيا؟

2- كيف كانت الشخصية التاريخية بين الفلسفة والإيديولوجيا؟

3- هل يمكن وصف الإيديولوجيا بالأفق السياسي للفلسفة؟

ويمكن صياغة الفرضية التي انطلقنا منها في بحثنا، على النحو التالي: علاقة الفلسفة بالإيديولوجيا علاقة اتصال وانفصال في الفكر العربي المعاصر - كسر قيود الإيديولوجيا العربية المعاصرة عن طريق فعل التفلسف المحظ باتباع طريق الاستقلال الفلسفي -حاجة الإنسان العربي الى الفلسفة والخروج من دائرة الفكر الإيديولوجي.

ونهدف من وراء بحثنا هذا المتواضع الى الكشف عن أسباب تمييز نصّار بين التفكير الفلسفي والتفكير الإيديولوجي، اي بين تفكير يُعنى بالإنسان بصورة عامة غايته وهدفه الإنسان. كما تهدف هذه الدراسة الى كيفية تأسيس نصّار لوعي

فلسفي عربي بعيد عن كل الانتماءات الضيقة والهويات الزائفة فلا بد من رفض المرجعيات السياسية والإيديولوجية.

وحاولنا الاستئناس بالمنهج التحليلي للإجابة عن تساؤلاتنا، ويتراءى ذلك للقارئ الكريم من خلال محاولتنا تبسيط أفكار بحثنا قدر المستطاع.

2. مفهوم الإيديولوجيا

يمكن تحديد الإيديولوجيا بكونها مجموعة من المعتقدات والأفكار التي تؤمن بها جماعة معينة "وهي التي تعطي المواطنين عنصرا إدراكيا تجعلهم يتولون مهمة الدفاع عنها وتبرير وجودها، وتفنيدها ما يحوم حولها من شبهات وظلال، بحيث يصبح عقل هذه الجماعة مأسورا بهذه الأفكار" (Martin, October, 31, 2014) وهنا العقل يعمل عمله فيما بحيث أنه لا يسمح بتجاوزها، وهنا يصبح العقل أسيرا داخل أسوارها، وبالتالي اختار طريقا لتكبير ذاته. والإيديولوجية رغم اختلاف مرجعيتها وأسسها (سياسية، اجتماعية، دينية)، فإنها تكبل العقل وروح الإبداع الفكري لمعتنقها، وبالتالي ترسم حدودا وأطرا معينة لعمل العقل وتوجيهه، فتظهر غائية غايتها في تحقيق مصالحها بغض النظر عن مصداقيتها أو موضوعيتها .

إن الاهتمام بموضوع الإيديولوجيا في الفكر العربي المعاصر أدى الى حالة من الاختلاف الثقافي والفكري وهو ما أدى الى ضعف الهوية الفكرية للذات العربية فغابت الذات مقابل حضور الآخر الذي أخذ دورها .

لقد مارست الإيديولوجيا استبدادها على العقل وسلبته حريته في الرأي والتعبير وأوقفت عنه الإبداع الذاتي مانعة بذلك السير نحو تطور الفكر الفلسفي الى فلسفة عربية معاصرة، وذلك راجع الى كون الوعي الإيديولوجي وعي بعيد عن العلمية والموضوعية، فهو يحاول الإبقاء على الإيديولوجية وكبح حركة التاريخ، وبالتالي معارضة حركة الواقع ومنطقه، وتقديم صورة مشوهة عن الواقع،

رؤية ناصيف نصّار لعلاقة الفلسفة بالإيديولوجيا في الفكر العربي المعاصر

والتشويه وتزييف العلاقة بين الذات العارفة والفاعلة وموضوع الفعل والمعرفة، ولمّا كان هم الإيديولوجية هو إثبات معتقداتها وحقائقها والمفاهيم الخاصة التي تؤمن بها وفقا لرؤيتها الخاصة، لا وفقا للواقع الموضوعي ولا استجابة لنتائج العلم وقوانينه، عندها أصبحت الفلسفة والفعل الفلسفي العدو اللدود الأول لها، وهذا راجع لتعارضها في نقاط كثيرة، كما أن فعل التفلسف مؤسس على الحقيقة وعلى المبادئ العقلية والمنطقية .

يظهر لنا جليا أن الفكر الإيديولوجي فكر براجماتي جمعي، لا يعترف بالفرد إلّا ضمن جماعة، ولا يقرّ بالخصوصية الفردية إلّا ضمن مسار هذا الفكر، يقول العروي: "أدلوجة عصر من العصور هي إذن الأفق الذهني الذي كان يحد فكر إنسان ذلك العصر". (العروي، 2012، ص 10)

يرجع مضمون الفكر الإيديولوجي النصّاري الى ثلاث فئات من الأفكار، تختلف نوعيا، وترتبط جدليا: (الأفكار التفسيرية - الأفكار المعيارية - الأفكار الإنشائية)، (نصّار، طريق الاستقلال الفلسفي (سبيل الفكر العربي الى الحرية والإبداع)، ط 4، 2009، ص 55) إن الفكر الإيديولوجي دائما ما يحاول التقرب من الفلسفة أكثر بهدف تكوين نظام إيديولوجي يحتوي على نواة فلسفية، هي بالنسبة إليه كالجدع للشجرة، دون أن يعني ذلك أن الفلسفة شكل من أشكال الإيديولوجية، وإنما هي المستوى النظري الأعمق فيها. (نصّار، طريق الاستقلال الفلسفي (سبيل الفكر العربي الى الحرية والإبداع)، ط 4، 2009، ص 59)

يشير نصّار الى نديم البيطار الذي يُعدّ من أبرز الذين تحدثوا عن الإيديولوجيا في الفكر العربي المعاصر، فقد قدم البيطار نظرية ثورية للإيديولوجيا او كما أطلق عليها "الإيديولوجيا الانقلابية"، وهي نظرية فلسفية اجتماعية تاريخية، ترصد طبيعة الإيديولوجيات المتكاملة عبر سيرورة الحركة التاريخية، وتعبّر عن آلية الانتقال من إيديولوجيا تقليدية الى إيديولوجيا ثورية جديدة تكون

هذه الإيديولوجيا الجديدة استجابة لمتطلبات الواقع، ونعتقد بأن البيطار يهدف من خلال هذه النظرية الى الوصول الى قانون علمي ثابت يرجع إليه التبادلات الاجتماعية والتاريخية التي تحدثها الإيديولوجيات الانقلابية أو الثورية .

لقد لفت حديث البيطار عن مراحل تكون الإيديولوجيات وشروطها اهتمام ناصيف نصّار، خاصة حديثه عن مرحلة الفلسفة الاجتماعية الجديدة، "فمنها ما هو دراسات في المنطق، ومنها ما هو نظريات عامة حول التاريخ، ومنها ما هو محاولة للكشف عن المثل والقيم"، (البيطار، 1982، ص 83) هذه الأفكار تتقاطع كثيرا مع دعوة نصّار لقيام فلسفة إبداعية معاصرة ومستقلة، لأنّ الفيلسفين كلتيهما تدعوان لمعرفة الواقع وحاجاته وذلك بتأسيس دعوى إبداعية وليست اتّباعية تقوم على النقد والتحليل والتساؤل وتسعى الى تجاوز الضعف السائد بكل أشكاله .

يظهر لنا إعجاب نصّار اللا متناهي بفكرة نديم البيطار وفلسفته الاجتماعية في قوله: "يمكننا التّثبت بصورة تمهيدية، من قيمة هذا الموقف النظري، وما ينطوي عليه من نتائج، بمناقشة نظرية الدكتور نديم البيطار في الإيديولوجيا الانقلابية. هذه النظرية تطرح قضية الإيديولوجيا في العالم العربي المعاصر بصورة جذرية شمولية، لا نجد مثيلا لها عند أي مفكر عربي فوري. لذا يشكل استخلاص العبرة منها خطوة مهمة في معالجة هذا البحث". (نصّار، طريق الاستقلال الفلسفي (سبيل الفكر العربي الى الحرية والإبداع)، ط 4، 2009، ص 62) وهنا يقر نصّار بأن البيطار لم يدعو الى إيديولوجيا اتّباعية، بل كانت دعوة الى حركة انقلابية ثورية شاملة في المجتمع العربي. وهذه المرحلة حسب البيطار هي مرحلة الفكر الحر ومرحلة صياغة النظريات والقوانين والمبادئ .

3. علاقة الفلسفة بالإيديولوجيا

إن غاية الإيديولوجيا إحداث نوع من التطابق الاعتقادي ورسم توجهات ومعاليم المجتمع وكذا تحركات المجتمع الى العالم وموقفه منه، أما الفلسفة فهي تسعى الى صنع الفروقات ودراستها وقبول الاختلافات الموجودة داخل المجتمع وهنا يظهر لنا أن منهج الإيديولوجيا مختلف تماما عن منهج الفلسفة، فالفلسفة تسعى الى التفكيك، أما الإيديولوجيا فإنها تهدف الى التوحيد والخروج بنسق فكري واحد ونظرة واحدة .

يرى نصّار أن: "التنازع النظري بين العقل والإيديولوجية هو تنازع في داخل الفكر الإنساني وفي داخل الصراعات الاجتماعية التي يستبد المنتصر فيها بتقرير مصير المجتمع شكلا وروحا، ولذا يكون في معظم الحالات تنازعا حادا شديد التأثير على حركة الفكر في الحياة الاجتماعية، ويتخذ أشكالا شتى بحسب الظروف والمعطيات الذاتية التي تخلقها طبيعة الفكر المسيطر في المجتمع". (نصّار، مطارحات العقل الملّزم (في بعض مشكلات السياسة والدين والإيديولوجيا)، ط 1، 1986، ص 93-94) هذه العلاقة بينهما تخلق نوعا من التوتر عبر التاريخ وتحولاته. وجعلها سمة من سمات الحياة الفكرية، فدفاع كل منهما ضد الآخر هو دفاع تاريخ طبيعي ناتج عن تناقض مهمتهما. لكن رغم هذا التوتر الحاد بينهما إلا أن نصّار يبين الحدود بين الفلسفة والإيديولوجية بأنها غير ثابتة، أو أنها غير مستقرة بصورة نهائية، ولم يتم الاتفاق عليها بشكل شامل، فهي حسب تعبيره "إنها حدود تعني الفصل، ولكنه فصل لا يمنع التداخل. وهي على أي حال، موضوع نزاع مفتوح، ما دام الاتفاق حولها غير قائم بصورة جدية مقبولة على نطاق واسع. إنها اذن، حدود متحركة بحسب ما يستقر عليه التنازع بين العقلانية والإيمانية والإيديولوجية". (نصّار، الإيديولوجيا على المحك (فصول جديدة في تحليل الإيديولوجيا ونقدها)، ط 1، 1994، ص 40)

نجد أن نصّار يقر بتحول الفلسفة إلى إيديولوجيا رغم احتفاظ كل منهما بخصوصياته، وفي هذه النقطة يتفق نصيف مع الجابري، ويتبين لنا ذلك من خلال حديث الجابري عن العولمة، فالعولمة إيديولوجيا عالمية تهدف إلى بعثرة الانتماء للأمة والحضارة والوطن، فهنا تطغى الإيديولوجيا على سلوكنا مقابل تراجع دور الفكر الفلسفي في حياتنا، مما أدى إلى تحول الفلسفة إلى شكل من أشكال الإيديولوجيا يقول الجابري: "وتكف الفلسفة عن اعتماد التسامح موقفا فكريا وعمليا وتفقد هويتها ومزيتها وتصبح شيئا آخر، نسميه اليوم إيديولوجية". (الجابري، 1997، ص 21)

كما يستحضر لنا نصّار نموذج آخر متمثلا في الفيلسوف الألماني هيجل يبين به آلية انتقال الفكر الفلسفي إلى إيديولوجيا، على الرغم من أن مصطلح الإيديولوجيا لم يكن معروفا بشكله اللفظي نفسه آنذاك فقد بين أن هيجل تحدث عن تصورات وأهواء ورغبات الجماعة وهذه التصورات تنطبق بصورة واضحة على معنى الإيديولوجيا السائد اليوم، يقول نصّار: "فإننا نكتشف أن الإيديولوجيات ليست سوى وسيلة لتحقيق العقل الكلي، وإنها في نهاية الأمر مستوعبة معقولة التاريخ العليا. وعلى هذا الأساس يصبح التعارض بين العقل والإيديولوجيا شيئا ظاهريا فحسب، ويصبح نمو الفكر الإيديولوجي وازدهاره، بل وسيطرته التامة على حياة الجماعات والمجتمعات، أمرا جاريا باسم العقل، وبحسب منطق العقل، وفي خدمة العقل". (نصّار، مطارحات العقل الملتزم (في بعض مشكلات السياسة والدين والإيديولوجيا)، ط 1، 1986، ص 97)

إذن نستنتج أن منطق تطور الفلسفة مختلف عن منطق تطور الإيديولوجيا. وفي هذا السياق حاول نصيف نصّار تحديد طبيعة المشكلة بين الفلسفة والإيديولوجيا أو بين العقل والإيديولوجيا فكل منهما يدعي البحث عن

الحقيقة وهذا يقودنا بالضرورة الى صعوبة الفصل بينهما، فالإيديولوجيا تحاول تفنيد شكوك العقل، والعقل يحاول عقلنة كل شيء .

4. الإيديولوجيا بوصفها أفقا سياسيا للفلسفة

يقر نصّار باستحالة تحول الإيديولوجيا الى عقل محض يقول: "فالعقلنة في حركة الفكر الإيديولوجي لا تعني انقلاب الإيديولوجيا الى فكر عقلي خالص، بل تعني أن نظرة الجماعة الى نفسها والى الواقع الاجتماعي التاريخي الذي تتفاعل معه تستند الى معطيات من العقل العلمي ومعطيات من العقل الفلسفي وتستعمل هذه المعطيات لتبرير المشروع الذي تسعى الجماعة الى تحقيقه". (نصّار، مطارحات العقل الملتزم (في بعض مشكلات السياسة والدين والإيديولوجيا)، ط 1، 1986، ص 107)

وفي هذه الحالة يعني تضيق العقل وحصر دوره، وبالتالي تستفيد منه الإيديولوجيا دون ان يستفيد هو منها .

يستعين ناصف نصّار ببعض النماذج على غرار النموذج الماركسي للتمييز بين السياسة والإيديولوجيا، فيقدم مفهوم الدولة من زاوية الإيديولوجيا النازية، باعتبار أن النازية حركة سياسية وثورية، كانت تريد إعادة تشكيل المجتمع الجيرماني على أسس خاصة بها، ونجد أن نصّار هنا يوجه نقدا لادّعاء للماركسية بقوله: "وفي استطاعتنا اليوم بعد مضي ما يقارب القرن على وفاة ماركس وبعد التطورات التي عرفت الماركسية والمجتمعات الرأسمالية والمجتمعات التي تعرف باسم العالم الثالث، أن نؤكد بدون مجازفة أن التصورات والتنبؤات التي حملتها الماركسية حول مهمة البروليتاريا في تحرير الإنسان من الاغتراب السياسي، كانت أحلاما طوبوية تلبست لغة الضرورة التاريخية، لأسباب مختلفة، ومنها الحاجة الى الترسخ الإيمان بجدول النضال في سبيل الثورة البروليتارية"، (نصار، الفلسفة في معركة الإيديولوجيا (أطروحات في تحليل الإيديولوجيا وتحرير الفلسفة من

هيمنتها، ط 2، 1980، ص 247) ويعتبر هنا ناصيف نصّار أن الماركسية لم تستطع النجاح أو بالأحرى فشلت لأنها لم تقم لنفسها هدفا ومعلما واضحا، وإنما قامت على انقاض البورجوازية، إذن هدفها ليس خدمة الإنسان، وإنما تحطيم البرجوازية، وهذا هو سبب تجاوز التصور الماركسي، ومن خلال هذه النماذج يبدو الاختلاف واضحا بين المضمون الإيديولوجي والمضمون السياسي، فكل إيديولوجية تنظر للفعل السياسي نظرة مغايرة تماما لسابقتها. وبالتالي تكشف الإيديولوجيا عن مفاهيمها وغاياتها من خلال الفعل السياسي الخاص بها، إذ كل إيديولوجيا هدفها سياسي، أو أسلوب تحقيقها هو السلطة السياسية، مع العلم أن السلطة بحاجة إلى إيديولوجيا لاستمرارها، فالعلاقة بينهما علاقة تكامل .

قد تقوم السلطة بالالتكاء على نظام إيديولوجي طائفي كان أو ديني أو اجتماعي لاستمرارها في السلطة، عندها تتحول الطائفة إلى طائفية ذات مرجعية إيديولوجية سياسية.

5. الشخصية التاريخية بين الفلسفة والإيديولوجية

لا يمكن الحديث على التاريخ دون الحديث عن أشخاص لعبوا دورا هاما ومحوريا في توجيه هذه الحركة التاريخية في زمان ومكان معينين ومحددتين، فظاهرة الشخصية التاريخية هي ظاهرة شاملة، أي أنها في بعض الأحيان تكون نادرة الحضور، فقد تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة، كما أنها توجه حركة التاريخ حسب الدور الذي تلعبه يقول نصّار: "ظاهرة الشخصية التاريخية ظاهرة عامة، لا بمعنى أنها تتكرر بكثرة، ولا بمعنى أننا نجدها بالضرورة في جميع المجتمعات والعصور، بل بمعنى أنها غير محصورة في صنف معين من المجتمعات أو العصور. ففي العصور القديمة والوسيطة، نجد شخصيات توصف في العادة بأنها تاريخية، نظرا إلى الدور الحاسم الذي لعبته في توجيه حركة التاريخ ... من أمثال حمورابي والإسكندر المقدوني ويوليوس قيصر وشارلمان وصلاح الدين

رؤية ناصيف نصّار لعلاقة الفلسفة بالإيديولوجيا في الفكر العربي المعاصر

الأيوبي". (نصار، الفلسفة في معركة الإيديولوجيا (أطروحات في تحليل الإيديولوجيا وتحرير الفلسفة من هيمنتها، ط 2، 1980، ص 283) يرى ناصيف نصّار أن الشخصية التاريخية ذات رمزية إيديولوجية، فالغلبة السائدة في الفكر العربي للإيديولوجيا ومرجعيتها الفكرية يقول: "ومن الأسباب الإضافية التي تدعوها الى السير في هذا الاتجاه حالة الفكر التاريخي السائد في الثقافة العربية اليوم، وبالتالي حاجة الفكر العربي الى مراجعة تصوراته عن الشخصية التاريخية. فالمستوى المسيطر في الفكر التاريخي العربي الراهن هو المستوى العقائدي، الديني والإيديولوجي، والنظرة العامة الغالبة الى الشخصية التاريخية مشتقة من نمط التفكير الديني وتغذيها رواافد قوية متنوعة من الفكر الإيديولوجي". (نصار، الفلسفة في معركة الإيديولوجيا (أطروحات في تحليل الإيديولوجيا وتحرير الفلسفة من هيمنتها، ط 2، 1980، ص 284-285)

يدعو ناصيف نصّار الى ضرورة معرفة أصل الشخصية التاريخية ومن خلال العودة الى النظرة الفلسفية يقول: "النظرة الفلسفية الى الشخصية التاريخية هي إما نظرة تحليلية، وإما نظرة تفسيرية. في الحالة الأولى ينصب النظر على حقيقة الشخصية التاريخية ... أما النظرة التفسيرية الى الشخصية التاريخية تستلزم نظره عامة الى التاريخ البشري، وتشكل خطوة متقدمة بالنسبة الى النظرة التحليلية". (نصار، الفلسفة في معركة الإيديولوجيا (أطروحات في تحليل الإيديولوجيا وتحرير الفلسفة من هيمنتها، ط 2، 1980، ص 288)

ينتقل بنا نصّار مباشرة الى تحديد ماهية الشخصية التاريخية والخصائص المميزة لها عن الظواهر القريبة منها او المترادفة في الرأي العام معها، كظاهرة البطل، وتحديد مفهوم الرجل التاريخي. حسب ناصيف نصّار فإن الشخصية التاريخية تتسم بالفرادة والعظمة وأي نقص لهاتين الصفتين يعني استحالة تشكل الشخصية التاريخية يقول: "فكل شخصية تاريخية شخصية فريدة

وعظيمة. وبدون هاتين الصفتين لا تتحول الشخصية الفردية، مهما كانت مواهبها وأعمالها، الى شخصية تاريخية". (نصار، الفلسفة في معركة الإيديولوجيا (أطروحات في تحليل الإيديولوجيا وتحرير الفلسفة من هيمنتها، ط 2، 1980، ص 291)

إن رجل التاريخ حسب ناصيف نصّار هو الذي يشكل نقطه الفصل بين مرحلتين يقول: "الرجل التاريخي هو الرجل الفذ المتفوق الذي يفصل بينما قبله وما بعده بحيث يمكن القول لولاه لما حصل ما حصل انه الرجل الذي استحق بفضل تفوقه وعطائه، مكانةً مميزةً في تصور الناس للتاريخ. ولهذا لا تعد الذاكرة التاريخية "تيمورلنك" من الشخصيات التاريخية". (نصار، الفلسفة في معركة الإيديولوجيا (أطروحات في تحليل الإيديولوجيا وتحرير الفلسفة من هيمنتها، ط 2، 1980، ص 290)

يشير نصّار أن للإعلام دورا بارزا في إظهار الشخصية التاريخية في الصورة التي تحلو للجماعة التي توجهه، ولا سيما في زمننا الحاضر يقول: "ولا يخفى ما للمؤسسات الإعلامية من دور في توظيف صورة الآخر في التعامل الإيديولوجي، وبخاصة بعد الثورة التي عرفتها البشرية في العقود الأخيرة في مجال وسائل الاتصال والإعلام. وفي الواقع، تشارك المؤسسات الإعلامية الى حد ما، في إنتاج هذه الصورة كما يحددها قادة الجماعة الإيديولوجية ... لا بد للجماعة الإيديولوجية من استغلال الوسائل الإعلامية، على اختلافها، لتسويق الصورة التي تريد تسويقها عن الآخر، عدوا كان او صديقا، قريبا او بعيدا، قويا او ضعيفا، في الداخل او في الخارج، للنخبة او للجمهور". (نصار، الإيديولوجيا على المحك (فصول جديدة في تحليل الإيديولوجيا ونقدها)، ط 1، 1994، ص 125-126)

يضيف لنا نصّار مؤسسة أخرى من المؤسسات الفاعلة في بلورة الفكر الإيديولوجي، وتتمثل هذه المؤسسة الفاعلة في المؤسسة التربوية، فهي تشارك

رؤية ناصيف نصّار لعلاقة الفلسفة بالإيديولوجيا في الفكر العربي المعاصر

مؤسسات الإعلام آلياته في صناعة صورة الشخصية التاريخية، فهي تراقب، وتستبعد، وتفسر، وتتوسع، وتكرر، وتحذف، وتضيف، حتى تأتي صورة الشخصية التاريخية على الشكل الذي تهواه، وهذا العمل كله هو جهد وثمره الجماعات السياسية، الواعية والقادرة، على تلقين الناشئة سياستها اتجاه الآخر عن طريق العناية الخاصة بالمؤسسة التربوية، (نصار، الإيديولوجيا على المحك (فصول جديدة في تحليل الإيديولوجيا ونقدها)، ط 1، 1994، ص 127-128 بتصرف) يقول: "وهكذا يتربى جيل بكامله على كراهية الآخر والنفور منه، او على قبول التعايش معه، او على الخوف والحذر الدائم منه، او على الاعجاب به ومحبهه والاطمئنان إليه، او على احتقاره والسعي الى السيطرة عليه، او على الاعتراف به واحترامه والتعاون معه بإخلاص، تنفيذاً لسياسة عامة تتبعها الجماعة الإيديولوجية اتجاه ذلك الآخر". (نصار، الإيديولوجيا على المحك (فصول جديدة في تحليل الإيديولوجيا ونقدها)، ط 1، 1994، ص 128).

يبين نصّار أن فاعلية الإيديولوجية في التاريخ فاعلية غائية، في الوقت الذي تكون فيه فاعلية الفلسفة فاعلية موضوعية يقول: "لا توجد حواجز فاصلة، عازلة، بين أجزاء الفكر التاريخي والفلسفة التاريخية: سواء كانت نظراً في أصول المعرفة التاريخية ام نظراً في مبادئ التاريخ الإنساني بأسره ام بحثاً في الوجود الإنساني من حيث هو وجود تاريخي، تتفاعل مع تقدم العلم التاريخي ومع تجدد الفكر الإيديولوجي". (نصار، الفلسفة في معركة الإيديولوجيا. (أطروحات في تحليل الإيديولوجيا وتحليل الفلسفة من هيمنتها، ط 2، 1980، ص 174)

نستنتج إذا أن الفلسفة مجبورة على العودة للتاريخ للتأكد من صحتها وعدم تناقضها إن مشكل الإيديولوجيا اليوم في الفكر العربي المعاصر ليس فقط استحضار الشخصية التاريخية من مسيرة تاريخ واستحداثها وتوظيفها فحسب، بل إن المشكل الأعظم يكمن في أن هذه الإيديولوجيات أخذت هذه الشخصية

التاريخية لتوظيفها توظيفاً يخدم جماعة معينة تريد فرض نفسها على واقع غير واقعها، فأكثر الإيديولوجيات العربية المعاصرة ذات مصدر خارجي. إذا ينبغي تحرير العقل العربي من ثقافته التي ارتبطت بشخصيات تاريخية تتعايش معها وكأنها موجودة بيننا اليوم، فدائماً ما كان هذا العقل مكبلاً بقيود الماضي الذي يَكُن للغرب العداء ويمنع تجاوز العادات والتقاليد الموروثة، ولا نعني بذلك أن الشخصية التاريخية شخصية غير مهمة، فلو أننا قصدنا ذلك لما طالبنا بالعودة للشخصية التاريخية، بل قصدنا أن هذه الشخصية قد اختطفت من قبل إيديولوجيات معينة لخدمة مصالحها الشخصية، نتيجة لذلك كانت الإيديولوجيا أفقا سياسياً للفكر الفلسفي، كما كانت مرجعية أساسية للسلطة في مجتمعنا العربي المعاصر كما أسلفنا ذكره سابقاً.

6. خاتمة

لقد أفضى هذا المقال إلى نتيجة مفادها أن ناصيف نصار لم ينكر - في حقيقة الأمر - التلاقي بين الفلسفة والإيديولوجية لأن محورهما الإنسان، ونهوض الإنسان العربي غاية فلسفته، بل إن دعوته للاستقلال الفلسفي، دعوى ذات بذور إيديولوجية قومية، وهذا التلاقي والتلاحق بين الفلسفة والإيديولوجيا لا يعده نصّار إخلالاً بالفعل الفلسفي وروح الفلسفة، لأن الأمر سيتحول إلى علاقة جدلية تعالج خصوصية الواقع العربي، وكونية الفكر الفلسفي وهذه الجدلية بين الكونية والخصوصية عمل فلسفي من شأنه إبراز فاعلية الذات الفلسفية العربية وتنميتها.

ويمكن إيجاز أهم نتائج هذه الدراسة في النقاط التالية :

- يقرّ ناصيف نصّار بضياغ الحقيقة بين الإيديولوجيا وتاريخ الفلسفة لتسوّق الإيديولوجيا نفسها وكأنها النظرة الصحيحة للإنسان والكون والحياة، وهذا ما دفعه إلى ضرورة التمييز بين نمط التفكير الإيديولوجي ونمط التفكير الفلسفي .

رؤية ناصيف نصّار لعلاقة الفلسفة بالإيديولوجيا في الفكر العربي المعاصر

- يتميز التفكير الفلسفي عن التفكير الغيديولوجي بارتباط هذا الأخير بمصلحة جماعة معينة وهو تفكير نمطي قومي نفعي، بينما التفكير الفلسفي تفكير يتميز بأنه عقلاني وإنساني وكوني وأخلاقي .
- إن الإيديولوجيا تولد وتنتشر لكنها في نفس الوقت تموت والدليل على ذلك فيما شهده ويشهده العالم من انهيار للعديد من الإيديولوجيات كالنازية والشيوعية وغيرها .
- يختلف التفكير الفلسفي عند ناصيف نصّار عن التفكير الإيديولوجي كون أن الأول يعبر عن الإنسان والحرية والحقيقة بينما الثاني يتميز بالانحياز والعملية والمصلحية، وبالتالي تصبح الحقيقة مطلبا ثانويا، كما أن التفكير الفلسفي تفكير يتسم بالطابع النقدي عكس التفكير الإيديولوجي الذي يتسم باليقينية والعقائدية.

7. قائمة المصادر والمراجع

1. عبد الله العروي. (2012). مفهوم الإيديولوجيا ط 8. بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي.
2. محمد عابد الجابري. (1997). قضايا في الفكر المعاصر ط 1. بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
3. ناصيف نصار. (1980). الفلسفة في معركة الإيديولوجيا (أطروحات في تحليل الإيديولوجيا وتحليل الفلسفة من هيمنتها، ط 2. بيروت، لبنان: دار الطليعة للطباعة والنشر.
4. ناصيف نصار. (1986). مطارحات العقل الملتزم (في بعض مشكلات السياسة والدين والإيديولوجيا)، ط 1. بيروت، لبنان: دار الطليعة.
5. ناصيف نصار. (1994). الإيديولوجيا على المحك (فصول جديدة في تحليل الإيديولوجيا ونقدها)، ط 1. بيروت، لبنان: دار الطليعة.
6. ناصيف نصار. (2009). طريق الاستقلال الفلسفي (سبيل الفكر العربي الى الحرية والإبداع)، ط 4. بيروت، لبنان: دار الطليعة للطباعة والنشر.
7. نديم البيطار. (1982). الإيديولوجيا الثورية، ط 2. بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
8. Martin, J. L. (October, 31, 2014). What is ideology? Chicago, illiois, USA: Univ of Chicago.